ملخـص البحـث

التقاليد الفنية للرســم والتصــوير في الحضارة الفينيقية ما بين ١٥٠٠ ق.م وحتى ٥٠٠ ق.م في شرق المتوسط

في مقدمة البحث قمت بالتمهيد للبحث بالحديث عن المواصفات النادرة التي تمتع بها الفينيقيون والأسباب التي جعلتهم يتمتعون بها مثل البيئة التي عاشوا فيها، والتي كان لها دور في تشكيل مفاهيمهم وبناهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية بالإضافة إلى اندفاعهم نحو البحر والاتجار مع كل حضارات العالم القديم أدى إلى تجمع ثروات طائلة بين أيدي الفينيقيين وهذه الثروات دفعتهم إلى بناء المدن المحصنة والقلاع ذات الأسوار المرتفعة مما أدى بدوره إلى ظهور مفهوم المدينة المملكة أو ما يعرف باسم ممالك المدن Kingdom City وساد التنافس الحاد والرهيب بين هذه الممالك لكنه لم يتحول إلى صراع عسكري إلا نادراً ونادراً جداً والسبب هو النزوع العميق للسلام الذي امتاز به الفينيقيون.

لقد عمم الفينيقيون مفهوم (المملكة المدنية) إلى الشعوب والحضارات المجاورة فظهر في بلاد الإغريق والرومان فيما بعد واستمر حتى فترة القرون الوسطى.

بالإضافة إلى المفهوم السياسي قدّم الفينيقيون مفهوماً آخر غاية في الأهمية وهو مفهوم العولمة لأول مرة في تاريخ البشرية Globalization حيث قاموا بتحويل مدنهم المحصنة إلى مراكز ضخمة لتجمع كل أشكال البشر والأفكار، والمعتقدات والفنون، والثقافات، والبضائع والمنتجات مما أدى إلى مزج البشر وثقافاتهم بشكل كبير حوّل هذه المدن بدوره إلى مدن عالمية Metropolitan المظهر.

في هذه المدن العالمية أبدع الفينيقيون فناً مختلطاً واستخدموا وأبدعوا الكثير من الأشكال والموتيفات والرموز التي استعملت بدورها في بناء وإنجاز كافة الأعمال الفنية الفينيقية تلك الأعمال التي شكلت لغزاً محيراً للكثير من الباحثين والدارسين لفنون الحضارات القديمة. تقول مادلين هوراس.

" لا يخدعنا عن الفينيقيين شيء بقدر ما تخدعنا فنونهم، فلا يمكن إنكار أن فنانين فينيقيين ولدوا في فينيقية وثقافتهم فينيقية وكانوا يتميزون بهذه الفنون وتألقوا فيها ولكن حين نتلمس ابتكاراتهم الفنية أو تحديد مميزات الفن الفينيقي فإننا نواجه صعوبات جمّة ".

إن التداخل والاختلاط في الفن الفينيقي دفعني إلى دراسة فنون الحضارات التي عاصرت الفينيقيين في فترة نشاطهم الكبير وإجراء المقارنات ومحاولة تحديد حجم التداخل.

ولقد قمت بتحديد الزمكانية الخاصة بالبحث حيث شمل البحث ممالك المدن الممتدة جغرافياً من شمال الساحل السوري في أوغاريت ورأس ابن هاني مروراً بأرواد وعمريت وسيميرا (تل كزل) وصولاً إلى صيدا وصور. وزمانياً قمت بتغطية الفترة الزمنية الواقعة ما بين القرن الخامس عشر قبل الميلاد فترة النشاط الأوغاريتي الكبير مروراً بالقرن العاشر والتاسع قبل الميلاد وهي فترة النشاط والازدهار الضخم لممالك المدن الفينيقية وحتى القرن الخامس قبل الميلاد الذي استمرت ممالك المدن الفينيقية في ازدهارها وتطورها قبل القرن الثالث قبل الميلاد وهي الفترة التي ظهر فيها الاسكندر المقدوني وقام باحتلال ممالك المدن في شرق المتوسط.

ولقد قمت باستعراض أهم الحوادث الزمنية التي عصفت بتاريخ هذه الممالك البحرية، أو ما يُعرف بـ (الكرونولوجيا) وكيف واجهت هذه المدن مصيرها وقمت بتسليط الضوء على الحالات البطولية، والمآثر العظيمة التي قدمتها بعض هذه الممالك في مواجهة الجيوش الضخمة الطامعة بثروات الفينيقيين وخيرات بلادهم.

الوطن الفينيقي (الجغرافيا):

تتميز الأرض التي سكنها الفينيقيون في شرق المتوسط وفي غربه أيضاً بغرابة وروعة مواقعها بحيث تحولت كل هذه الأماكن والمستعمرات إلى مدن تغص بالنشاط والحياة حتى يومنا هذا.

وأرض الفينيقيين في شرق المتوسط عبارة عن سهل ساحلي ضيق يمتد من خلفه سلاسل من الجبال تفصله عن الصحراء والمدن الداخلية من ناحية الشرق.

أما من الجنوب فإن فتحة مرج ابن عامر أو ما يسمى فتحة ازدرايلون ونتوء جبل الكرمل تفصله تماماً عن فلسطين.

وفي الشمال فإن امتدادات جبال طوروس تعيقه بشكل ملحوظ عن آسيا الصغرى خصوصاً إذا علمنا أن الامتداد الفينيقي شمل سواحل آسيه الصغرى كلها وجزر أيجه والبحر الأسود.

هذا الموقع الجغرافي المتوسط بين حضارات العالم القديم جعل أهل هذا المكان يتصفون بمواصفات ذهنية وفكرية ومزاج ثقافي خاص. جعلهم مركز لإنتاج الحضارة والفكر والثقافة ومعبراً لكل الثقافات شرقاً وغرباً لا بل كانوا معبراً ووسطاء بين الله والبشر، فعلى أرضهم ولد الأنبياء والرسل وأصحاب الرسالات السماوية من أراضيهم انتقلت هذه الرسالات إلى كل أنحاء العالم القديم هذه الديانات التي تتبع لها أكبر المجموعات البشرية على وجه الأرض حالياً.

وقبل هذه الديانات نقلوا إلى كل أنحاء العالم القديم آلهتهم وأساطيرهم ودياناتهم وأبطال ديانتهم.

هذا الموقع الذي جعل سوريا قلب العالم القديم وحلقة الوصل بين الشرق والغرب.

وساحلها الذهبي الذي ظهر فيه الفينيقيين يمثل شريطاً ضيقاً بين خليج اسكندرونة وصولاً إلى جبل الكرمل تعبره الجبال الهابطة للبحر ولا يكاد يتسع إلا في أماكن قليلة مثل سهل عكار.

ويمتاز هذا الساحل الطويل بوجود نتوءات صخرية جبلية حوّلها الفينيقيون إلى موانئ ومراسي للسفن.

أما الجبال المطلة على هذا الساحل فهي جبال الأمانوس في الشمال وجبال العلويين في الوسط وترتفع إلى ما يزيد على ٢٠٠٠ متر ثم جبال لبنان التي ترتفع أعلى قمة فيها وهي القمة السوداء إلى ٣٠٠٠ متر.

ولهذه الجبال العابرة للساحل والواصلة إلى البحر تأثيرين مهمين الأول أنها منعت الفينيقيين من تشكيل دولة موحدة بسبب جعلها إمكانية التواصل بين ممالك المدن صعباً للغاية والثاني أنها وقفت كالستار بين ممالك الساحل وممالك الداخل السوري رغم احتوائها على بعض الممرات الطبيعية مثل ممر بغجة وبيلان في جبال الأمانوس وفتحة مصب نهر العاصي وفتحة حمص في جبال العلويين، كما توجد فتحتان في الجدار الجبلي عند حيفا (سهل مرج ابن عامر) (ازدرايلون) وعند مصب نهر الكبير الشمالي Eleutherus الذي يفصل بين سلسلة لبنان الغربية وجبال العلويين.

إن توزع وانتشار ممالك المدن الفينيقية بالشكل الموجود حالياً كان نتيجة طبيعية لربط خطوط النقل التجاري الداخلي بموانئ البحر وبالعكس بالإضافة إلى تمتع هذه الممالك بحماية وحصانة طبيعية ممثلة بسلسلة الجبال السابقة الذكر أي الأمانوس والعلويين ولبنان التي تشبه الجدار في وجه جيوش الإمبراطوريات وممالك الداخل السوري.

ويرى كارل غوستاف موفرز أن المدن الفينيقية نشأت أولاً حول خليج الإسكندرونة حتى طرسوس.

ولكن سنقتصر في دراستنا على ممالك المدن الفينيقية الكبرى على شاطئ شرق المتوسط بدءاً بـ أوغاريت مروراً بـ أرواد وعمريت وصولاً إلى بيبلوس (جبيل) وبانياس وبالتوس وسيميرا وطرابلس وانتهاءً بـ صيدا وصور.

أوغاريت (رأس الشمره):

تتمتع أوغاريت بموقع جغرافي ممتاز فهي على رأس الطرق التجارية الشمالية بين البحر المتوسط وأعالي الفرات.

وحسب كلود شيفر فإن أوغاريت كانت عامرة بالنشاط منذ الألف الخامسة قبل الميلاد.

وهي المدينة الأهم في شرق المتوسط وذلك لأسباب كثيرة أهمها العثور بين خرائبها على أول أبجدية في تاريخ البشرية، تلك الأبجدية التي اشتقت منها معظم الأبجديات في عالمنا الحاضر. يقول جورج بيرو: "إن ابتكار الأبجدية كان حدثاً هاماً جداً لا يمكن مقارنته بأي حدث آخر في تاريخ الجنس البشري وهو أعظم من ابتكار الطباعة، إذ أن تحليل الكلام وإرجاعه إلى عناصره الأولية يحتاج إلى عمل فكري عظيم".

ولم يكن اللوح الصغير الطيني الذي حوى ثلاثين حرفاً هو الوحيد المكتشف تمثل أول أبجدية في تاريخ الإنسان بل إن أوغاريت قدمت لنا أيضاً أول قطعة موسيقية في العالم إذ ترجع إلى ١٤٠٠ ق.م أي قبل ألف عام من أقدم قطعة موسيقية عرفها الغرب، وهي قطعة اورستيس المسرحية الموسيقية التي ألفها (يوريبيديس).

ولقد أبانت ألواح رأس الشمرة الموسيقية أنها أساس علم الموسيقى الغربي الذي أقامه فيثاغورس عام ٥٠٠ ق.م إذ أنها تقوم على السلم السباعي الدياتوني.

ولقد قام العازف كروكر بعد تمرين استمر عشر سنوات بعزف القطعة الموسيقية في حفل كبير في جامعة بيركلي آثار إعجاب الحاضرين ودهشتهم.

هذا غيض من فيض مما قدمته أوغاريت للإنسانية والتي لعب موقعها الجغرافي الهام وإشرافها على الخطوط التجارية القادمة من بلاد الرافدين والتي كانت تجتمع وتصب في ميناءها الشهير دوراً عظيماً في ذلك الزمن البعيد.

أرادوس – أرواد:

وهي واحدة من أهم المدن الفينيقية إن لم تكن أهمها ولقد بينت على صخرة وسط البحر وتبعد عن شاطئ البحر حوالي ٢,٥ اثنان ونصف كيلو متر وهي المسافة التي تفصلها عن جزءها البري المسمى عمريت تلك المدينة الفينيقية الشهيرة والتي ما تزال تخبئ في طياتها الكثير الكثير من الأسرار.

وأرواد بنيت من خلال وصل مجموعة من الجزر الصغيرة المتجاورة بطريقة تدل على عبقرية هندسية قل نظيرها.

ولقد اغلب المهندسون الفينيقيون على صغر مساحتها ببناء منازل من عدة طبقات جرياً على عادة الفينيقيين في كل من ممالكهم.

وقاموا أيضاً ببناء كاسراً للأمواج وميناءين شمالي وغربي فاستطاعوا بذلك تأمين مكان لرسوا السفن في كل المناخات والظروف المختلفة وأعاصير وأمطار وتيارات بحرية.

أما مشكلة المياه العذبة فهي قد تم حلها بطريقة عبقرية فعلاً. فقد لاحظ الفينيقيون وجود فقاعات مائية في عدة أماكن في البحر المحيط بهم وفي منتصف المسافة بين الجزيرة وشاطئ البحر ولقد تبين لهم أن هذه الفقاعات هي عبارة عن ينابيع مياه عذبة تنبع في قاع البحر الذي جعلهم يخترعون فكرة مذهلة وهي عبارة عن قمع رصاصي موصول بأنابيب مصنوعة من الجلد تصل إلى الجزيرة. ولقد استخدموا بالإضافة إلى هذه الطريقة طريقة القرب الجلدية التي كانت تملأ من سطح ماء البحر مكان الفقاعات تماماً.

لقد كانت أرواد عبارة عن مدينة قلعة أي قلعة تعتصم بها مدينة وكان لموقعها الجغرافي في وسط البحر بحر شرق المتوسط دوراً كبيراً في ازدهار تجارتها وضخامة أساطيلها البحرية.

بانياس:

تقع في منتصف المسافة بين طرطوس واللاذقية وهي مكان قديم تقع على جور صغير هادئ.. وتشرف عليه قلعة المرقب.

وتأتي أهميتها لوقوعها في نهاية الطريق القادم من حماه مخترقاً جبال العلويين ولقد استطاع دوسو تعيين مكان هذا الميناء القديم بقلعة القور.

سيميرا (صومور) تل كزل:

وهي أيضاً في محافظة طرطوس الحالية وتقع على الطريق بين قادش وعمريت ولقد كانت جزءاً من دولة (عامورو) التي كانت تضم أيضاً أوللاذا، ارثوسيا، مجدليم، أحبي (لم يتم تحديد مركزها بعد) جبيل، شيجاتا، أرقاتا (عرقة حالياً)، توبيخي، واكحيلة.

لعل أهم الممالك الفينقية التي احتفظ أرشيفها لنا بأحداث موثقة هي أوغاريت جدة الممالك الفينيقية.

حيث تحدثنا هذه الوثائق على أن الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس عشر إلى العشرين سنة الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريباً من أزهى عصور أوغاريت المملكة من كل النواحي الاقتصادية والفكرية والسياسية وغيرها.

ولقد شاركت جيوش هذه المملكة مع جيوش الحثيين في معركة قادش الشهيرة (قرب حمص حالياً) ضد جيوش الفرعون المصري رعمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة المصرية ولم تحسم هذه المعركة لصالح أحد على ما يبدو وانتهت بمصاهرة ملكية حيث تزوج رعمسيس الثاني إحدى بنات الملك الحثي (شوبيلوليوما).

تعرضت أوغاريت في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى صدمة عنيفة جداً تمثلت بشعوب البحر التي أتت على هذه المملكة على ما يعتقد واختفت أوغاريت نهائياً من مسرح أحداث التاريخ ولم تقم لها قائمة بعد ذلك ويعتقد أن ذلك تم عام ١١٨٠ ق.م.

هذه المملكة العظيمة التحصين في عرض البحر ذكرها هيرودوت في تواريخه وأطنب في وصف جمالها ومنعتها ورواج تجارتها.

في عام ١١٠٠ ق.م فرض عليها تيجلات بلاسر الأول (١١١٣-١٠٧٤ ق.م) الجزية.

وفي عام ٨٧٦ ق.م فرض الملك آشور ناصر بال الجزية مجدداً عليها بالإضافة إلى صيدا وصور.

في عام ٨٥٠ ق.م خلع ملك أرواد الطاعة وحاول التنصل من دفع الجزية لكن شلمناصر الثالث (٨٦٠-٨٥٨ ق.م) أجبره على دفع الجزية ثانية.

وفي عام ٧٣٤ ق.م تمتعت أرواد بشيء من الاستقلال التام والفعلي وعدم دفع الجزية السنوية لسنوات عديدة لكن في هذا العام أعاد الملك تيجلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) فرض الجزية السنوية.

وفي عام ٧٠١ ق.م ثار ملك أرواد "عبدليتي" Abdiliti مع بعض ملوك الفينيقيين ضد سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م) الذي استطاع الانتصار على تحالفهم وإجبارهم على دفع الجزية السنوية.

وفي فترة حكم الملك آشور بانيبال الشهير (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) قدّم ملوك أرواد الجزية السنوية.

ولقد توسعت قدراتها الاقتصادية في فترة الحكم الفارسي وعندما وصل الأسكندر المقدوني إلى المنطقة كانت أرواد من الممالك التي استقبلته وساعدته في حملاته العسكرية البحرية.

جبيل (ببيلوس):

لقد تمتعت هذه المدينة بموقع تجاري متميز منذ أقدم العصور جعلها تلعب دوراً هاماً على مسرح التاريخ في العالم القديم.

ولقد كانت جبيل على علاقة وطيدة مع مصر الفرعونية أكدتها المكتشفات الأثرية في جبيل وفي أرض الفراعنة.

ولقد ساءت العلاقات بين جبيل ومصر الفراعنة في عهد الأسرة السادسة ثم عادت إلى طبيعتها في عهد الدولة الوسطى ولم تعرف طبيعة هذه العلاقة في عهد الهكسوس الذين حكموا مصر لحوالي ١٥٠ عام.

في عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين تضاءل حجم التبادل التجاري والنفوذ المصري في جبيل وانتهى كلياً في عهد الأسرة الحادية والعشرين.

وفي الفترة التي اجتاح فيها تجلات بلاسر الأول ملك آشور في الفترة (١١١٢-١٠٧٤ ق.م) جنوب الإقليم السوري للحصول على أخشاب الأرز قدمت له على الأغلب جبيل الجزية ومن المرجح أنه لم يخض أي معركة.

صور:

وهي واحدة من أهم الممالك التي بناها الفينيقيون ومن أشهرها زارها هيرودوت وكتب وصفاً لمعبدها الشهير الذي كان مكرساً لإله المدينة ملفارت.

تمتعت صور بعلاقات دولية واسعة مكنتها من بناء ثروة طائلة ومستعمرات كثيرة.

وكانت على علاقة جيدة مع مصر الفراعنة في عهد الأسرة الثامنة عشرة. وكانت أكبر شريك تجاري وثقافي لمصر الفراعنة ولقد خلّدت الكثير من اللوحات الجدارية السفن الفينيقية القادمة من صور ومن غيرها من ممالك المدن الفينيقية مثل اللوحة التي تعود إلى فترة الدولة الحديثة في مصر وتمثل وصول سفينة فينيقية تجارية إلى طيبة.

وفي فترة الصراع بين الحثيين والمصريين ابتعدت ممالك المدن الفينيقية عن مصر وساندت الحثيين في معاركهم ضد فراعنة مصر مثل معركة قادش قرب حمص التي لم تحسم لأي طرف بل انتهت بمعاهدة بين الطرفين.

عندما وصل سيتي الأول إلى السلطة في مصر جهز حملة عسكرية لاستعادة السيطرة على القطاع الجنوبي من الإقليم السوري من أيدي الحثيين، وفي عهد خلفه رعمسيس الثاني قام بحملة أخرى وصل بها إلى حدود نهر الكلب بالقرب من بيروت.

في عام ١٢٠٠ ق.م اجتاحت محافل ما عرف في التاريخ باسم شعوب البحر مناطق شرق المتوسط وممالكه مما أدى إلى دمار كبير عمّ ممالك المدن الفينيقية.

بعد زوال هذه الموجة العنيفة استطاع الفينيقيون استعادة نشاطهم التجاري والعمراني وحققوا إنجازات كبيرة في كل المجالات.

وامتد هذا الازدهار الضخم ما يقرب القرنين من الزمن وفي عام ٨٧٦ ق.م فرض أشور ناصر بال الثاني الجزية على صور وصيدا وأرواد وفي عام ٨٠٥ ق.م أداد نيراري الثالث يقوم بحملة عسكرية على سوريا وممالكها. وفي عام ٧٤٥ ق.م تجلات بلاسر الثالث يقوم بحملة عسكرية ويفرض الجزية على صيدا وصور، وفي عهد سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م) خضعت ممالك المدن ومنها صور لسلطانه وعندما جاء سنحاريب (٧٠٥- ٦٨١ ق.م) هزم تحالف المدن في سوريا ومنها الفينيقية وأخضعهم لسلطته.

وفيما بين (٦٧٦-٦٧١ ق.م) ثارت صور ضد الدولة الآشورية لكنها فشلت في هذه الثورة.

شكلت صور حلفاً مع ملك أثيوبيا وحاولت الثورة مجدداً ضد سلطة آشور لكن هذا التحالف سقط أيضاً أمام جيوش أسرحدون.

ثم ثارت ضد آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) لكنه أخضعها بقسوة مفرطة من جديد.

بعد سقوط الدولة الآشورية سنة ٦١٢ ق.م تخلصت ممالك المدن من موضوع دفع الجزية للمول الآشوريين لكنها تعرضت لخطر البابليين حيث قام نبوخذنصر (٦٦٥-٥٦٢ ق.م) بمحاصرة صور لمدة ثلاثة عشر عاماً لكنها في النهاية خضعت له.

وبعد وفاة ملك صور (بعل) ٥٦٤ ق.م حكم صور قضاه لمدة سبع سنوات، ثم جاءت سلالة من الملوك ابتدأت بـ (ميربال) ثم أخوه حيرام (٥٥٢-٥٣٢ ق.م).

وبعد سقوط الدولة البابلية لم يُعرف على وجه الدقة وضع الممالك الفينيقية لكن تشير المصادر إلى خدمات ضخمة قدّمها الفينيقيون للفرس مثل قيام الأساطيل البحرية الفينيقية بدعم الملك الفارسي قمبيز الثاني أثناء إعداده لغزو مصر.

وامتنعت عن مساعدته عندما حاول غزو قرطاجة.

كما ساعدوا ملوك الفرس في بناء وقيادة الأساطيل البحرية وفي حروبهم ضد الإغريق وغيرهم، وأشهر ملوك الفرس الذين قدم الفينيقيون لهم المساعدة مثل داريوس الثاني (٥٤٢-٩٨٦ ق.م) أجزركيس (٤٧٥-٤٦٥ ق.م) وغيرهم من الملوك.

ولقد استمر الحال على هذا المنوال حتى عام ٣٣٣ ق.م عندما جاء الاسكندر المقدوني واحتل شرق المتوسط وحاصر صور فترة طويلة حاربته خلالها حرباً ضروساً وقاومته مقاومة شرسة. وقد كانت مقاومة أهلها وبطولاتهم في الذود عن وطنهم مضرب المثل على مر التاريخ.

صيدا:

صيدا واحدة من الممالك المهمة في شرق المتوسط وقد كانت على علاقة ممتازة مع أخواتها من ممالك المدن الأخرى وتعرضت للغزو وفرض الجزية من ملوك آشور مثل بقية الممالك الفينيقية الأخرى.

إلا أن أشد الكوارث التي تعرضت لها صيدا تمت في عهد العاهل الآشوري "أسرحدون" (٦٨١-٦٦٨ ق.م) تحالف عبد مليكوتي خليفة ايتوبعل الثاني ملك صيدا مع ملك كيليكيا ضد "أسرحدون" الذي دمر هذا التحالف ودمر معه صيدا تدميراً وحشياً وقتل ملكها وقتل معه أكثر من أربعين ألفاً من السكان سنة ٦٦٧ق.م وحال صور بعد الآشوريين كحال بقية الممالك الفينيقيى فخضعت للبابليين وساعدت الفرس ثم خضعت للاحتلال اليوناني عام ٣٣٣ ق.م.

من أشهر ملوكها كان اشمون عازار الأول (٤٧٢-٤٥٧ ق.م)

الرسم والتصوير في عصور ما قبل التاريخ

دخلت البشرية منذ ٣٥٠٠٠ سنة في عصر جديد استمر حتى ١٢٠٠٠ سنة ق.م في هذه الفترة اختفى إنسان نياندرتال في أوروبة وظهور إنسان كرومانيون. أما الإنسان العاقل "الهوموسابينس" فيعتقد أنه تطور عن النياندرتال الفلسطيني ويعتبر الهوموسابينس جد البشرية جمعاء وهو أقرب الأشكال البشرية إلينا.

ولقد ظهر هذا الإنسان في سوريا الكبرى لكل إنجازاته امتدت على مساحة شاسعة امتدت من جبال الأورال وحتى سواحل الأطلسي وكان مركزها غرب فرنسا وشمال إسبانيا، أي في المنطقة الفرانكوكانتابرية.

ولقد حشد إنسان الهومسابينس (العاقل) مشاعره ومعتقداته عبر كل أنواع الفنون المعروفة لدينا الآن كالنحت والرسم والتصوير والحفر.

وأشهر المغاور التي ترك إنسان العصر المدلاني (١٨٠٠٠-١٣٠٠٠) ق.م فنونه على جدرانها مغارة لاسكو Lascaux في فرنسا ومغاور ألتاميرا Altamira في إسبانيا و La Greze – Lavssel – Capblanc وغيرها.

ولقد تطورت فنون عصور ما قبل التاريخ ولاسيما التصوير والرسم في مرحلة الباليوليت الأعلى الذي مرّ بعدة مراحل كان آخرها المرحلة المجدلانية (١٨٠٠٠ - ١٣٠٠٠) ق.م في هذه المرحلة تعود معظم الأعمال الجدارية الكهنية البديعة التنفيذ ثم انتقلت هذه الرسوم والتصاوير من البساطة والسذاجة إلى الواقعية والتعقيد ومن نقوش بسيطة على الخزر وأدوات الزينة إلى أعمال فنية حقيقية.

قرى الصيادين الأولى في المشرق العربي:

انتقل مشعل الفن في نهاية العصر المجدلاني من أوروبة إلى بلاد الرافدين وسوريا وانتهت مرحلة حياة الكهوف والمغاور إلى بناء القرى في السهول الواسعة وعرف التقاط الثمار وصيد الحيوانات المتنوعة. ولقد تميز هذا العصر بـ:

أولاً- بناء القرى الأولى التي عرفت باسم قرى الصيادين الأولى.

ثانياً- تمت في هذا العصر عمليات صنع الأسلحة والأدوات المركبة والأدوات الزراعية الأولى من الحجر البازلتي والأدوات العظيمة.

ثالثاً- انتهت في هذا العصر عصر الصيادين الأوائل الثقافات ذات الانتشار العالمي الواسع كالأشولية والموستيرية والأوينياسية ونشأت أخرى محلية في أصلها وفروعها.

رابعاً- ظهرت الفنون والمعتقدات بعدة أشكال ومظاهر وتقنيات كما بدأت الخطوات الأولى نحو التميز والخصوصية.

الثقافة الكبارية:

سميت كذلك نسبة إلى مغارة الكبارا في فلسطين حيث كشفت آثارها لأول مرة في الربع الأول من هذا القرن.

وكانت بيوت الإنسان في هذه الثقافة عبارة عن حفر دائرية صغيرة مغروسة في السفوح والمنحدرات.

ولهذه الثقافة يعود أقدم بناء معروف في بلاد الشام حتى الآن ويعود إلى ١٣١٥٠ عام قبل الآن بزيادة أو نقصان ٤١٥ سنة.

الثقافة الزارزية:

تزامنت مع الثقافة الكبارية في بلاد الشام وتشابهت معها في الكثير من المواصفات.

الثقافة النطوفية:

وتعود للفترة الواقعة ما بين ١٠٠٠٠ ق.م وحتى ٨٠٠٠ ق.م .

ولقد ظهر النطوفيون في بلاد الشام في وادي النطوف (حفارة شقية) في فلسطين ولقد تميز النطوفيون بمجموعة من المزايا أهمها:

١- ترك المغاور نهائياً وبناء القرى الحقيقية الأولى.

٢- ظهور الأعمال الفنية الأولى في هذه المنطقة من العالم على شكل تماثيل ودمى مختزلة حيوانية وهندسية وأدوات.

٣- النطوفيون هم أول من بنوا المقابر الكبيرة بجوار قراهم.

القرى الزراعية الأولى:

وظهرت هذه القرى بعد تحولات كبرى عرفت باسم الثورة النيوليتية Neolithic Revolution ولقد جاءت هذه الثورة بشكل بطيء ولم تكن ثورة جذرية فجائية بل تصاعدية متدرجة. وتميزت هذه المرحلة بـ:

١- السكن في بيوت كبيرة قوية مربعة أو مستطيلة. كانت في البداية من الحجر والطين وأصبحت من اللبن المكيف ورصفت أرضها بالملاط الأبيض القاسي أو الحجارة.

٢- بنيت التنانير والمواقد للطبخ والتدفئة.

٣- بنيت الصوامع لتخزين الحبوب والطعام.

٤- ظهور مفهوم الجماعة بقوانينها وعاداتها.

٥- ظهور الأدوات الحجرية الصقيلة وسمي هذا العصر بـ عصر الحجر المصقول.

٦- ظهور أدوات ومعدات جديدة مثل المناجل ورؤوس السهام واستخدام القوس في الصيد.

٧- ظهور الأواني الحجرية ثم الفخارية لتحضير الطعام وتخزينه. حيث ظهرت الأدوات الحجرية في الألف السابع والفخارية في الألف السادس قبل الميلاد.

٨- ظهرت عمليات التبادل التجاري (المقايضة).

٩- ظهور فنون الرسم والتصوير على جدران البيوت والمعابد الأولى وظهرت تماثيل الأم الكبرى.

١٠- بدأت هذه المجتمعات بتخصيص جزء من وقتها لتزيين أدواتها التي تستخدمها بفنون الرسم والتصوير والنحت.

وأشهر الأمثلة عن هذه التزيينات كانت رسومات فخار سمارة وسمي هذا الفخار نسبة إلى موقع أثري على مجرى دجلة الأوسط.

وهذه الرسوم عبارة عن أشرطة مملوءة بالمربعات والمثلثات والمعينات وعدد من الأشكال الهندسية في تراكيب متعددة وخطوط متعرجة وتموجات تلتف حول آنية متعددة الأشكال.

رسومات ثقافة حسونة:

وسميت هذه الرسومات المنجزة على الفخاريات بهذا الاسم نسبة إلى موقع أثري على بعد ٣٥ كم جنوب الموصل وتقسم هذه الرسومات إلى ثلاث فترات زمنية (القديم، العادي، السامرائي).

رسومات الثقافة الحلفية:

وتعود رسومات هذه الثقافة إلى الفترة الواقعة بين ٦٥٠٠ وحتى ٥٥٠٠ ق.م. أما الاسم فهو نسبة إلى تل حلف الأثري في الجزيرة السورية. وقد عثر على آثار هذه الثقافة تحت السوية التي ضمت آثار مملكة جوزانا الآرامية.

الرسم والتصوير في العصور التاريخية (الفصل الثالث)

سـومر:

ظهرت هذه الحضارة في جنوب العراق ولقد تميزت هذه الحضارة بمجموعة من المزايا والخصائص أهمها:

أولاً- استخدامها للطين أو الطوب المجفف وعوارض الخشب في بناء المنازل والمعابد.

ثانياً- ابتداع زينات بالغة الجمال بتقنية الموزاييك وهي عبارة عن مجموعة من قطع الحجر ومواد أخرى تصف إلى جوار بعضها البعض لتصوير موضوع ما ويعتقد أن السومريين هم أول من ابتكر هذه التقنية التصويرية.

ثالثاً- ظهور فن التصوير على الأختام الاسطوانية.

أكـــاد:

تمتد هذه الحضارة من سنة ٢٣٤٠ ق.م بظهور الملك الأكادي سرجون وتلاه على العرش الآكادي أربعة ملوك كان أحدهم (نارام سين) الشهير، الذي بلغ الفن في عهده ذروته حيث بقيت بعض المسلات التي صورت مجموعة من الأحداث التاريخية بالإضافة إلى الأختام الأسطوانية.

الجوتييـن:

هبط الجوتيين من الجبال المحيطة ببلاد الرافدين وقد دحروا الحضارة الأكادية ونهبوا المعابد والقصور ولم يتركوا أية آثار فنية حقيقية خلفهم.

النهضة السومرية:

قامت النهضة السومرية على يد الملك (جوديا) حاكم مدينة لغش ويعبّر العمل النحتي الذي يمثل رأس هذا الملك عن الفن في هذه الفترة بالإضافة إلى لوحات قصر ماري الجدارية التي تعتبر الشاهد الوحيد على فترة النهضة السومرية.

الكاشيين (١٥٩٠-١١٦٠) ق.م:

وهم شعب متوحش استغل ضعف خلفاء حمورابي فدخلوا البلاد واحتلوها ولقد أبدوا قدرة كبيرة على تمثل التراث الرافدي بكل ثرائه وغناه.

كما اعتنوا بعمارة المعابد والزيقورات ولكن أشهر ما تركوه لنا هو نوع من المسلاّت تسمى (الكودورو) والكودورو كلمة تعني الحدود، ولقد كانت توضع على حدود الممتلكات العقارية.

ولقد عثر على بعض اللوحات الجدارية على بعض جدران قصر (دور- كوريفالزو).

الآشـــوريون

يقسم العصر الآشوري إلى ثلاثة عصور هي:

-العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠-١٧٥٠) ق.م.

-العصر الآشوري الأوسط (١٢٠٠-٩٠٠) ق.م.

-العصر الآشوري الحديث وعصر العظمة الآشورية (٩٠٠-٧٠٠) ق.م.

١- العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠-١٧٥٠) ق.م:

ولم تترك لنا هذه الفترة الآشورية أية آثار أو ملامح فنية حقيقية.

٢- العصر الآشوري الأوسط (١٢٠٠-٩٠٠) ق.م:

ولقد ظهر في هذه الفترة عدد من الملوك الأقوياء مثل أددنيراري الأول (١٣٠٥-١٢٧٤) ق.م وشلمانصر الأول وتوكولتي نينورتا الذي حارب الحثيين وانتصر عليهم ولم تكن الشخصية الفنية في آشور قد تكونت بوضوح في هذا العصر.

٣- العصر الآشوري الحديث وعصر العظمة الآشورية (٩٠٠-٧٠٠) ق.م:

لقد دفعت الإمبراطورية الآشورية عجلة التطور الفني في كل مجالاته ولقد تميّز الفن الآشوري بعدة مزايا أهمها:

أولاً- خضوع الأسلوب الفني لمزاج الملك وتغيره بتغيُّر هذا الحاكم أو الملك.

ثانياً- ظهور الروليفات الآشورية وهي أجمل ما خلفته لنا هذه الحضارة بكل معنى الكلمة، ولقد كانت هذه الروليفات بمثابة حملات دعائية للحاكم نفسه حيث جسدت هذه الأعمال حروب الملك وانتصاراته والولائم والصيد البري للوحوش.

ثالثاً- انهمك الفن الآشوري في الدعاية الشمولية للسلطة الملكية وتمجيد العظمة الدنيوية المعصومة عن الخطأ والمنتصرة دوماً.

رابعاً- ابتعد هذا الفن عن تصوير الآلهة والأساطير الإلهية وبالتالي ابتعد عن تقاليد بلاد الرافدين.

خامساً- كانت القصور في العصر الآشوري تضم عدداً كبيراً من اللوحات الجدارية البديعة.

سادساً- إبداع منحوتات (اللاماسو) Lamaso وهي هياكل ضخمة لثيران مجنّحة برأس بشري. ومن خلال اللاماسو فقد ابتكر النحاتون طريقة غاية في الإبداع تمثلت بالإيحاء من خلال الروليف بالنحت الدائري فلكل هيئة لاماسو خمسة قوائم اثنتان مرئيتان من الأمام وأربعة أثناء الوقوف والنظر من زاوية معينة أي من الجهة المواجهة للجهة الجانبية وبالتالي فإن المشاهد إما أن يقف في زاوية جبهية أو جانبية وهو في الحالتين يرى الشكل في كل مرة من جهة واحدة ولا يمكن لمشاهد واحد أن يقف في نقطتين مختلفتين في نفس اللحظة. وهذا الحل النحتي هو حل عبقري بكل معنى الكلمة.

سابعاً- في عهد سرجون تمّ اكتمال فكرة المنظر الطبيعي وابتعاد الفنان عن البنية الشريطية في تصوير الحدث وبهذا تخلى الآشوريون عن تقاليد بلاد الرافدين الغنية بشكل كامل بابتعادهم عن الأسلوب الشريطي.

ثامناً- ظهور النظام التركيبي في تصوير وسرد الحدث فصار المنظر الطبيعي يحتل ويغطي كامل اللوحة الرخامية أو الحجرية وصار الحدث بأكمله في لوحة واحدة.

تاسعاً- اقتصر الفن الآشوري على تصوير الحروب والانتصارات والاحتفالات الملكية والولائم ومشاهد الصيد وصراع الوحوش وفي تصوير الوحوش الجريحة.

عاشراً- وصل الفن إلى ذروته في عهد الملك المثقف آشور بانيبال بين الأسلوب الشريطي والأسلوب التركيبي.

حادي عشر- أكد المثالون على تصوير العضلات المفتولة والرقاب الغليظة إظهار القوة والعنف في مشاهد المعارك والصيد.

ثاني عشر- كانت الحيوانات والوحوش الجريحة بمثابة الأبطال الحقيقيين في اللوحات الآشورية. مثل لوحة اللبؤة الجريحة.

الرسم والتصوير عند الفينيقيين (الفصل الرابع)

لقد كان لموقع ممالك المدن الفينيقية في وسط العالم القديم أثراً كبيراً على إنتاجاتهم الفنية المتنوعة الأمر الذي جعل الباحثين الأثريين والمفكرين الذين حاولوا دراسة فنونهم يواجهون صعوبات كبيرة في تحديد وتعريف هوية هذه الفنون التي أبدعها الفينيقيون.

فلقد ارتبط الفينيقيون بعلاقات متعددة المظاهر والمستويات مع حضارات المتوسط من إغريق ورومان وغيرهم والحضارات النهرية الكبرى في وادي الرافدين ووادي النيل.

ولقد تنوعت هذه العلاقات من سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية واتسمت أحياناً بالمواجهات العسكرية والحربية البرية والبحرية وأحياناً أخرى انتقل هذا التنافس والاحتدام إلى الحروب الفكرية والثقافية إن جاز التعبير مع كل ما تحمله هذه المواجهات من تأثيرات مختلفة على أطراف الصراع والتنافس.

وفي ظل هذه الأجواء استطاع الفينيقيون نقل الكثير من نماذجهم الفكرية والثقافية والتجارية ونماذج منافسيهم إلى مراكز المستعمرات والمدن الكبيرة التي أنشئوها وخلقوا بذلك محيطاً عظيماً من الأفكار والثقافات المتنوعة انعكست بشكل واضح على كل فنون حضارات الشرق العظيم والبحر المتوسط.

في ظل هذه الظروف نشر الفينيقيون فنونهم على مساحات شاسعة من العالم القديم وتم التعرف على الكثير من قطعهم الفنية البديعة من خلال مجموعة من المظاهر والتقنيات والموتيفات التي اعتاد الفينيقيون استخدامها في أعمالهم الفنية ومن هذه المظاهر التي تميز الفن عن الفينيقيين:

١- استخدام بعض الموتيفات التي تنتمي إلى حضارات متعددة والمزج فيما بينها.

٢- استخدام موتيف الشجرة المقدسة والنخلة والثور بشكل متكرر.

٣- المزج المبتكر لعناصر كثيرة ضمن عمل واحد هي واحدة من مزايا الفن عند الفينيقيين.

٤- مشاهد الصراع مع الحيوانات الخرافية مثل (الغريفن) و(السفنكس) وغيرها من المخلوقات الخرافية المركبة وهي مشاهد فينيقية صرفه.

٥- مشاهد صراع ضد الأسود والسباع والحيوانات الخرافية وهي أيضاً مواضيع فينيقية بحتة، وغيرها من سباع البر المفترسة.

٦- مشاهد تمثل العجلة التي ترضع وليدها ولقد نفذت هذه المشاهد على ألواح صغيرة من العاج والعظم وهي أعمال عظيمة القيمة الفنية.

٧- استخدام ملامح فرعونية مثل تسريحات الشعر لبعض الآلهات واستخدام موتيفات مصرية لعدد من الآلهة المصرية ضمن تكوين جديد يبتعد عن النموذج المصري في بناءه وتوزيع فراغاته مثل السفنكس وحاتور وغيرها من الموتيفات.

٨- غنى التفاصيل وإشغال الفراغات بين الموتيفات بطريقة مبتكرة هي ميزة أيضاً من مزايا الفن الفينيقي.

٩- استخدام بعض الأحرف الهيروغليفية كعنصر تزييني دون الاهتمام لمعناه وغالباً ما كان بلا معنى لغوي محدد مما يدل على أن طريقة استخدامه كشكل فقط أي كقيمة فنية تصويرية لا أكثر.

١٠- جسّد الفن الفينيقي الكثير من المواضيع لكن أشهر ما عُرف عن هذا الفن تصويره وعلى سبيل المثال لا الحصر منظر صيد الخنزير الوحشي وصيد الأسود وصراع القنطور وأبي الهول المجنّح والنسور المتقابلة والغريفن والشجرة المقدسة والغزلان وغيرها.

وهذه الميزات والمظاهر التي امتاز بها الفن الفينيقي ظهرت على معظم إنتاجاته من صحون وكؤوس برونزية وفضية وذهبية وعلى العاج والعظم والأحجار الكريمة بالإضافة تصوير هذه المواضيع على جدران الأضرحة والنوويس، وأشهر أنواع وطرز النوويس الفينيقية التي حفظت لنا هذا الفن الجنائزي:

١- الطراز الليلكي: مصنوع من رخام الباروس وغطاءه على شكل سقف أوجيفي ارتفاعه يساوي ارتفاع الحوض نفسه.

٢- طراز الستراب: مصنوع من رخام باروس مزخرف بقواعد عليا في غطاءه وعلى الغطاء منظر شخص جالس وبين يديه حصاناً مسرجاً.

٣- طراز النائحات: مصنوع من الرخام البنتليكي وغطاءه على شكل سقف جملون وزخرفته عبارة عن طوابير من الفرسان والعربات في هيئة موكب التشييع.

٤- توابيت النسب الذهبية: وقد سميتها كذلك لأنها تضم مشاهد غاية في دقة التنفيذ والجمال وهي مصنوعة من رخام البنتليكي.

هذه الطرز الشهيرة التي حفظت الفن الجنائزي عند الفينيقيين أما طرق الدفن فقد مرت بمراحل كثيرة مثل:

أ- مدافن الجرار الكبيرة وتعود إلى عصر النحاس والحجر Eneolithique وهي كهوف تحوي بداخلها جرار كبيرة توضع فيها جثث الموتى.

ب- قبور أفران الخبازين وتعود للفترة ١٦٥٠ ق.م.

ج- مدافن أوغاريت وتعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد. ولقد بدأت قبور بسيطة ثم تحولت مستودعاً حقيقي للجثث.

د- تابوت حيرام ويعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد. (ص ١٣٩ في ملحق الصور).

ه- قبور المغاور وتعود للألف الأول قبل الميلاد وهي قبور محفورة في الصخر بشكل كوة مقياسها ٥٠-٦٣سم عرضاً وفي مثل ذلك ارتفاعاً.

و- قبور القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد (القبور ذات الآبار) وفي هذه القبور تحفر بئر إلى عمق متوسط تقريباً بين ٤-٥ متر وعند قاع البئر تحفر القاعة الجنائزية.

ز- المدافن ذات البئر والسلم (العائلية) القرن الرابع والخامس قبل الميلاد ومنها مدافن عازار في عمريت.

ح- مدافن المساكن الأرضية ولقد قمت بإضافة هذا النوع من المدافن حيث اقتربت المدافن العائلية من سطح الأرض وأصبحت بيوتاً للموتى.

التوابيت والنوواويس الفينيقية، وهي عدة أنواع ونماذج ونذكر منها:

أ- تابوت الثيكا (Theca).

ب- تابوت الأنتروبويد (Antropoide). الشكل ١٢١ (ص ١٣٨ في ملحق الصور).

ج- تابوت النائحات او النادبات أو الباكيات.

د- تابوت الليلكي.

ه- تابوت الستراب.

و- تابوت النسب الذهبية (وهي تسمية اقترحتها بدل التسمية التي اقترحها جورج كونتنو /توابيت الاسكندر/.

بهذا أكون قد وضعت لمحة عن الفن الجنائزي عند الفينيقيين.

التصوير الجداري:

لعل الرسوم الجدارية الوحيدة الباقية من العهد الفينيقي هي الرسوم الزيتية التي كانت تغطي جدران المدافن وكانت زخرفة المدافن بالرسوم الزيتية عرف شائع في كل من ممالك المدن الفينيقية وكانت الرسوم بوجه عام عبارة عن عقود من الأزهار أو أزهار بمفردها بالإضافة إلى تصوير الأشخاص والعصافير.

والألوان المستخدمة ألوان ناصعة فاتحة يغلب عليها اللونان الأحمر والأخضر ولعل كثرة القبور المزينة جدرانها بالرسوم والتصاوير الزيتية هي وراء تسمية صيدا بالمدينة الزهراء.

لقد عثر على الكثير من الرسوم في هذه المقابر موزعة على طول شرق المتوسط حيث تربعت ممالك المدن الفينيقية.

الرسم على الجرار والصحون الفخارية:

برع الفينيقيون في صناعة الأواني الفخارية وفي رسمها وتزيينها بالأشكال والألوان حتى تبدو بعض هذه الأواني أعمالاً فنية عالية المستوى والإبداع.

ولعل أكثر ما يعبّر عن الملكة الفنية الفينيقية في مجال التصوير والرسم على الفخار هو مجموعة الصحون الموجودة في المتحف الوطني بدمشق والتي تم تزيينها ورسمها بالكامل بحيث لم يترك أي فراغ فيها والناظر إلى سطوح هذه الصحون ليحسب نفسه أمام أعمال تجريدية من القرن العشرين لما تتمتع به المجموعات اللونية من انسجام وتمازج وإتقان.

أما البراعة في الرسم والخطوط فإن المجموعة الفاخرة من الجرار الغريبة الشكل والتي عثر عليها في تل كزل الواقعة جنوب طرطوس وهي مدينة "سيميرا" الفينيقية القديمة لتدهش عين الناظر بجمالها ودقتها.

ولقد توسعت في دراسة هذه النماذج في البحث الأساسي ولا مجال لذكر هذه التفاصيل في هذا الملخص حيث يمكن العودة للبحث للاستزادة.

البورتريه الزجاجي والتصوير باستعمال الزجاج الملون:

لقد كان الزجاج الملون واحد من أهم ما عرف به الفينيقيون عبر التاريخ وتفوقوا بصناعته وتقنياته على أمم العالم القديم وكانت أوانيهم المتقنة الصنع تقدّم كجوائز في الألعاب الرياضية كما يذكر هوميروس في ألياذته.

ورغم الخلاف على أسبقية اختراعه فإن الفينيقيون هم من نشر هذه المادة الرائعة في كل أنحاء العالم القديم على أقل تقدير، وهم من أنتج أجمل القطع الزجاجية في ذلك الزمان البعيد.

ولقد صنع الفينيقيون الأدوات الخدمية بالإضافة إلى القطع الفاخرة ذات الصبغة الترفية. فقد ابتكروا عجينة الزجاج وقلدوا بها الأحجار الكريمة، وابتكروا الزجاج الشفاف لأول مرة وصنعوا منه أدوات بالغة الرقة كانت مضرب المثل في العالم القديم.

ولأول مرة قام الفنان الفينيقي بتوقيع أعماله الفنية سابقاً بذلك أقرانه في حضارات محيطة بالفينيقيين.

وابتكر الفينيقيون لؤلؤ الزجاج وهو لؤلؤ نصلف شفاف وملون وأحياناً يكون قاتماً..

أما أجمل ما أنتجه الفينيقيون من مادة الزجاج كان البورتريهات الفينيقية أو الوجوه الزجاجية.. وقد نفذت هذه الوجوه الرائعة بتقنية عالية وباستخدام عدد كبير من الألوان المتجانسة والمتقنة.

الموزاييك الفينيقي:

يعتبر الموزاييك واحد من فروع فن التصوير القديمة والموزاييك عمل فني تصويري يعتمد على رصف أحجار ملونة من مصادر طبيعية وذات أبعاد محددة.

والهدف من التصوير بهذه الطريقة هو تخليد أحداث تاريخية أو أسطورية أو لبناء وحدات زخرفية هندسية أو نباتية ويطلق على هذا الفن فن الخلود ولقد برع الفينيقيون في هذا الفن وكان لهم تأثير كبير على الإغريق والرومان الذين أخذوا تقنيات هذا الفن ومواده عن الفينيقيين وطوروه.

التصوير على الأقمشة Textile:

لقد حقق الفينيقيون شهرة واسعة في فن النسيج والأزياء والألوان فصبغوا الأقمشة المنسوجة من القطن، والكتان، والصوف وصمموا أجمل أزياء العالم القديم وتشهد على ذلك رسومات الفراعنة الجدارية التي تمثلهم بأجمل الثياب وأكثرها أناقة وفخامة.

ويعود للفينيقيين اختراع اللون القرمزي، أو اللون الملكي وهم من أدخل القطن وتقنيات زراعته وحصاده ونسجه إلى بلاد الإغريق.

وبرع الفينيقيون في تصميم الأزياء في العالم القديم حتى صارت ثيابهم مضرب المثل في هذا المجال.

الرسم على العاج:

لعل العاج هو من أكثر المواد التي برع الفينيقيون في تشكيلها بعد الزجاج وقد أبدع الفينيقيون من هذه المادة أعمالاً خالدة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، ولعل قطعة العاج التي تمثل اللبؤة وهي فترس إفريقي واحدة من هذه الأعمال الخالدة.

ولقد استخدم العاج في تزيين الأسرّة والمفروشات بكل أشكالها وكانت معظم ممالك المدن الفينيقية مراكز مهمة لإنتاج هذا العاج الفاخر مثل أوغاريت وإيبلا وصيدا وصور وقرطاجة وغيرها من الممالك.

أما أهم المواقع الأثرية التي عثر فيها على مجموعات كبيرة من العاج الفينيقي فهي على سبيل المثال لا الحصر "أرسلان طاش" أو ما يُعرف بـ "حداتو" وأوغاريت وبيبلوس وقصور الآشوريين مثل قصر أشور ناصر بال الثاني وأشور بانيبال، وفي مجيدو ونمرود وأكبر المجموعات العاجية الفينيقية وجدت في خرائب المدن الآشورية وقد وصلت إلى هناك بثلاثة طرق باعتقادي وهي:

١- عن طريق الأتاوات والجزية التي فرضها الآشوريين على ملوك ممالك المدن الفينيقية.

٢- عن طريق النهب والسلب والسرقة التي تعرضت له ممالك المدن الفينيقية التي حاولت التخلص من السيطرة الآشورية.

٣- عن طريق التجارة والتبادلات بين التجار من الطرفين الآشوري والفينيقي.

ولقد قمت بتصنيف العاجيات الفينيقية التي قمت بدراستها في بحثي واعتمدتُ في التصنيف على المزايا الفنية لكل مجموعة من هذه المجموعات الفاخرة، وهي:

أ- مجموعة تحمل خصوصية محلية فينيقية.

ب- مجموعة تستخدم موتيفات مصرية ضمن العمل الواحد.

ج- مجموعة تستخدم موتيفات رافدية.

د- مجموعة تستخدم موتيفات رافدية مصرية فينيقية محلية.

ولقد قمت في البحث بدراسة نماذج عن كل مجموعة من هذه المجموعات العاجية الفاخرة.

الرسم على المجوهرات:

لقد قام الفينيقيون بتصوير نفس الموتيفات التي كانوا يصورونها على العاج مستخدمين الأحجار الكريمة الملونة التي كانوا أيضاً يطعّمون بها العاج وأكثروا من استخدام هذه الأحجار في المصوغات،

والمجوهرات، وكانت لمجوهراتهم شهرة واسعة في العالم القديم ومضرب المثل في دقتها وجمالها ويمكن تصنيف هذه المجوهرات بنفس الطريقة التي صنفت بها العاجيات وهي كالتالي:

١- مجوهرات تحمل خصوصية فينيقية صرفه.

٢- مجوهرات تحمل موتيفات مصرية بحتة بحيث لا يمكن تمييزها عن الأصل المصري لولا وجود تواقيع بأحرف فينيقية أو استخدام متعمد ومغلوط للكتابة الهيروغليفية المصرية.

٣- مجوهرات تحمل موتيفات رافدية مصرية فينيقية.

٤- مجوهرات تحوي مؤثرات وموتيفات رافدية مصرية فينيقية إغريقية.

وتضم متاحف فرنسا "اللوفر" والولايات المتحدة وإسبانيا وإيطاليا وسوريا ولبنان مجموعات رائعة من هذه المجوهرات والمصاغ التي لا تقدر بثمن.

الرسم على الأختام:

لقد ظهرت الأختام الأسطوانية والمسطحة أول ما ظهرت في العالم كان في شرقنا ولقد استخدمها إنسان هذا الشرق لمجموعة من الأهداف منها ما كان للتعبير عن أفكاره ومعتقداته.

ومنها ما كان لتسجيل حدث تاريخي.

ومنها ما كان لتصوير أسطورة ميثولوجية محددة وفي هذه الحالة كان يكتسب هذا الخاتم صفة التعويذة التي تحمي حاملها من غضب الآلهة ومن شرور العوالم الماورائية التي تتربص به.

وفي كل الأحوال كانت الأختام وسيلة للتعريف بالشخص الذي يحملها وهي بمثابة الهوية الشخصية بالنسبة لإنساننا اليوم.

ولقد حوّت هذه الأختام على الدوام معلومات قيمة جداً عن الإنسان في الشرق عموماً وفي ممالك المدن الفينيقية خصوصاً.

وعملية تسجيل هذه المعلومات التي هي عبارة عن مجموعة من الصور المنفذة بحرفية عالية ضمن مساحة لا تتجاوز في أغلبها ٢×٥ سم هذه العملية تعتبر من أقدم طرق النشر الثقافي وذلك أن الخاتم المصنوع من الهيماتيت أو السيتاتيت أو الصدف يمكن طبعه عشرات المرات على الطين، وبذلك تصنع بسهولة ألواحاً من الطين يمكن نقلها إلى مسافات بعيدة حاملة معها أفكاراً ومعتقدات وأخباراً تبقى ماثلة للعيان لزمن طويل.

ولقد قمت بدراسة كل الإشارات والرموز والشخوص التي صوّرها الفينيقيون على الأختام واعتمدت على المفاهيم الأساسية المتبعة في فن التصوير لتقييم هذه الأعمال التي اعتبرها أولى المنمنمات التصويرية في العالم.

الرسم على الأدوات والأواني المعدنية:

اشتهر الفينيقيون ببراعتهم في التعدين ومزج العناصر المختلفة من المعادن للحصول على معدن جديد، فاخترعوا البرونز من مزج النحاس بالقصدير بنسبة محددة واخترعوا الالكتروم وهو معدن ثمين مشكل من الذهب والفضة وبسبب أهمية المعادن في العالم القديم فقد تسمت عصور بأكملها باسم المعن الذي استخدم خلالها معدن ما على نطاق واسع. فظهر لدينا عصر النحاس وعصر البرونز وعصر الحديد، وخضع كل عصر إلى تقسيمات زمنية محددة.

وكما هو الحال مع الأختام والمجوهرات والعاجيات فقد استخدم الفنان الفينيقي الموتيفات بالمتأثر بفنون الحضارات المحيطة به بالإضافة إلى موتيفاته المحلية ثم مزجها في عمل فني واحد بطريقة تدل على عبقرية شديدة الوضوح.

ولقد قام الفنان بكتابة اسمه أو اسم مالك هذا الإناء الفاخر خصوصاً على الأدوات التي تطابق مثيلتها (إن كان لها مثيل) المصرية. ولعل القطع البرونزية التي عثر عليها في إيطاليا في قبر (برنارديني) والذي يعود إلى أواخر القرن السابع قبل الميلاد لدليل على ما ذهبت إليه حيث أراد الفنان إظهار فينيقية القطعة التي تحمل موتيفات مصرية من خلال:

١- كتابة اسم مالك هذا الإناء الفاخر بالأحرف الفينيقية.

٢- إن الكتابة الهيروغليفية على هذا الصحن ليس لها معنى حسب مادلين هوراس. حيث قام الفنان برأيي باستخدام الرسومات التي تدل على الأحرف الهيروغليفية كوحدات زخرفية من جهة، ومن جهة أخرى ليدل على أن من صنع هذه الآنية هو شخص غير مصري.

٣- رُسم الثور والأسد بطريقة الرسم المعروفة في سوريا وساحلها.

وما ذكرت سابقاً ينطبق على كم كبير من القطع البرونزية الفاخرة الصنع.

الرسم والتصويرعند الفينيقيين وعلاقته بالرسم والتصوير عند الاشوريين:

ما إن ظهر الآشوريون على مسرح أحداث الشرق القديم كقوة عسكرية جبارة منذ الألف الأول قبل الميلاد حتى بدأت جيوشهم بالتحرك غرباً للقبض على نهايات الطرق التجارية البرية على سواحل المتوسط، وبالتالي الوصول إلى ممالك المدن الفينيقية الفاحشة الثراء. ولقد فرض ملوك آشور المتعاقبين

على حكام الممالك الفينيقية الجزية التي تألفت في غالبها مما كانت هذه الممالك مشهورة في إنتاجه وإبداعه مثل العاج والذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة والأخشاب وغيرها من المواد والأعمال.

ولقد عثر في خرائب المدن الآشورية على كم كبير من التحف والكنوز الفنية التي تعبر عن تلك الحضارة وعن ميزاتها بالإضافة إلى كونها أي هذه الكنوز مادة تمدنا بالكثير من المعلومات الأثرية والتاريخية ولقد تميز الفن الآشوري بعدد من المظاهر، أهمها كان:

١- الروليفات الجدارية.

٢- القطع الفنية المعدنية من برونزية وذهبية ونحاسية وفضية من كؤوس وأواني وأدوات.

٣- العاجيات.

٤- التماثيل المتنوعة.

٥- أعمال فنية مزجت بين النحت الدائري والروليف.

٦- الأزياء والأقمشة.

ولقد ظهر حجم التأثير الهائل المتبادل بين الفينيقيين والآشوريين من خلال ما عثر عليه من موجودات فنية فينيقية بين خرائب الآشوريين. ولقد أثبتت من خلال دراسة دقيقة للفن الآشوري مجموعة من القرائن أن الفينيقيين قد كان لهم دور عظيم فيما يعرف بالفن الآشوري. ونذكر بعض هذه القرائن على سبيل المثال لا الحصر:

١- إن معظم العاجيات المكتشفة مثل عاجيات "نمرود" و"أرسلان طاش" هي أعمال فنية فينيقية والدليل القاطع كان وجود تواقيع بالأحرف الفينيقية على سطوح هذه الأعمال الخلفية.

٢- إن عدداً كبيراً من القطع البرونزية ذات المزايا الفنية العالية ولاسيما التي اكتشفها Osten Layard عام ١٨٤٩ في الغرفة AB في القصر الشمالي الغربي في نمرود Nimrud تنضوي تحت ما يعرف اصطلاحاً بين الآثاريين بالفن الفينيقي.

٣- يعد استقدام الآشوريين الكثير من الفنانين الفينيقيين الذين كان لهم باع كبير في إنجاز الكثير من الأعمال الفنية التي تصنف تحت يافطة الفن الآشوري، وقد أوردت في متن البحث ما يثبت فكرة استقدام الورشات من سكان الممالك غير الآشورية.

٤- إن الإمبراطورية الآشورية المفرطة القسوة والعنف تجعلني أرسم علامة استفهام كبيرة حول مجموعة من الأعمال الفنية التي تمثل حيوانات متنوعة وهي في حالة عاطفية شديدة التأثر وفي

حالات الاحتضار المؤلم الأمر الذي جعلني أشك عن إمكانية أن ينفذ هكذا أعمال شعب عُرف بقوته العسكرية وتأليهه للقوة وبقسوته المفرطة.. فمن أنجز هذه الأعمال إذاً ...!؟

٥- إن ابتعاد الفن الآشوري بشكل جذري عن فنون حضارات الرافدين السابقة وتقاليدها يدل برأيي على أن هذا الفن كان وراءه قوم هم على ما أعتقد الفينيقيون ساهموا بابتعاد الفن الآشوري عن الحوض الفني الذي نما وترعرع فيه.

٦- بما أن الرولييفات الآشورية تعتبر واجهة للفن الآشوري بشكل عام وخصوصاً في الحقبة الآشورية الثالثة أو ما يسمى بالحقبة الآشورية الحديثة (١٠٠٠ – ٦١٢ ق.م) إن المقارنة الدقيقة للأعمال العاجية الفينيقية والطريقة التي أنجزت بها والمزايا الفنية تقودنا ببساطة إلى الإحساس بأن هذه العاجيات والبرونزيات ما هي إلا مجسمات (ماكيتات) صغيرة لأعمال كبيرة وأذكر على سبيل المثال لا الحصر طريقة تصوير رأس الثور في العاجيات الفينيقية مطابقة تماماً لطريقة نحته كعمل فني نحتي جداري (روليف) والفارق هو المادة (العاج) والحجم فقط. وإن تصوير (الباراكيبوتسا) وهي فينيقية الصنع بشكل لا يرقى له شك على الأسرة الآشورية المنحوتة جدارياً يدل على أن هذا الأثاث الفاخر هو فينيقي الصنع حتماً. وهذا المثال يدل بدلالة مهمة على أن الفينيقيين كان لهم أثر أو يد في تنفيذ هذه الجداريات الفاخرة بالإضافة إلى عدد من الأدلة الأخرى كنت قد ذكرتها في متن الأطروحة.

وأخيراً وليس آخراً إن تزامن ازدهار الممالك الفينيقية الإمبراطورية الآشورية رغم وقوع الممالك الفينيقية تحت سيطرة الآشوريين يدل على تبادل المصالح والمنافع بكل مستوياتها ومظاهرها ومنها المظهر الجمالي والفني.

الرسم والتصويرعند الفينيقيين وعلاقته بالرسم والتصوير عند المصريين.

ترجع العلاقات بين الساحل السوري بمفهومه القديم وفراعنة مصر إلى عصور ما قبل التاريخ وليس إلى العصر التاريخي فحسب ولقد تغلفت هذه العلاقات في العهود اللاحقة بغلاف الأساطير والحكايات الغرائبية والملاحم الدينية.

ومن هذه الأساطير أسطورة "أوزوريس" إله العالم الأسفل وكيف قتله أخوه "ست" ووضعه في صندوق في البحر المتوسط وانتقل هذا الصندوق إلى شاطئ ببيلوس واحتوته شجرة أثلٍ وأخفته في طياتها.. إلى آخر هذه الأسطورة حين يعود أوزوريس إلى أرضه. إن هذه الأسطورة تضم قدراً كبيراً من الإشارات والإيماءات التي يمكن استنباط معلومات تاريخية مهمة منها.

وهي أن هذه الأسطورة تدل بشكل قاطع على العلاقات الدينية والتداخل العميق في مفاهيم الموت والحياة والآلهة وغيرها من التشابهات.

إن رسائل تل العمارنة وهي سلسلة من اللوحات مكتوبة باللغة البابلية بحروف مسمارية موجهة إلى الملك المصري أمينوفيس الثالث (١٤٠٥-١٣٧٠ ق.م) وأمينوفيس الرابع (١٣٧٠-١٣٥٢ ق.م) مرسلة من أمراء ممالك في سوريا القديمة.

وهي أي الرسائل تدل على حجم التداخل بين الفراعنة والفينيقيين وسأعرض باختصار بعض الملاحظات الهامة في هذا المجال:

١- استخدم الفينيقيون موتيفات مصرية في أعمالهم الفنية بالإضافة إلى موتيفات أخرى بحيث كانت هذه الأعمال الفنية عبارة عن خليط من الموتيفات لكنها عمل مبتكر بكل الأحوال.الشكل ١٢٢ (ص ١٣٨ في ملحق الصور) .

٢- درج الفينيقيون على إنتاج مجوهرات ومصوغات رفيعة المستوى مصرية المظهر وأحياناً تفوق الأصل المصري جمالاً ودقة ولم تكن تعرف هذه القطع على أنها فينيقية لولا وجود تواقيع بالأحرف الفينيقية أو أخطاء في استخدام الحروف الهيروغليفية وهي أخطاء متعمدة برأيي.

٣- إن وجود أواني ومصوغات ومجوهرات وسيوف وحراب نقش عليها أسماء الملوك الفراعنة لا يعني بالضرورة أن هذه القطعة هي صناعة مصرية والدليل السيف البرونزي الذي عثر عليه في بقايا مشغل حدادة في أوغاريت نقش عليه اسم الفرعون مرنبتاح (١٢٤٠-١٢١٣ ق.م) وهو بطول ٧٤,٤ سم وموجود في المتحف الوطني بدمشق. فلو يا ترى عثر على هذا السيف في أي بقعة من بقاع مصر فهل من سيقول إن هذا صنع في أوغاريت ..!؟.

٤- اعتماد المصريين على الخشب الفينيقي بشكل هائل في معظم مناحي حياتهم الدينية والدنيوية ولاسيما بعد أن تبين أن عدداً من الزيوت المستخرجة من خشب الأرز كانت مادة رئيسية في تقنيات فن التحنيط الذي اشتهر به المصريين.

٥- إن العثور على عدد كبير من الأواني المصرية الطابع والتي تحمل أسماء بعض فراعنة مصر في بقايا المعابد الفينيقية دليل واضح على الاحترام الذي كان يعطيه الفراعنة لآلهة الفينيقيين ومعابدهم.

٦- إن الأزمة الخانقة التي أصابت مصر في القرن الخامس قبل الميلاد جعلت المصريين القدماء يستوردون الجعارين المصرية الطابع من قرطاجة الفينيقية ومن سردينيا البونية.

هذا غيض من فيض فإذا كان فراعنة مصر يستخدمون الجعارين (المقدسة عندهم) التي صنعت في الورشات الفينيقية، فما هو يا ترى حال الأدوات والأواني والمصوغات ذات الصفة الترفية غير المقدسة.

وهل كان فراعنة مصر يستخدمون الكثير من هذه الأدوات الفاخرة الصنع ذات الطابع المصري والمنشأ الفينيقي ...!؟

لقد لعب الفينيقيون دوراً عظيماً في العالم القديم وقدّموا للإنسانية إنجازات لم يقدمها غيرهم من أمم العالم ولا يتسع المجال هنا لذكرها، وكانت ممالكهم المنتشرة في أرجاء العالم القديم أشبه بالأحجار الكريمة ذات السطوح البراقة تشع بالفكر والروحانية والجمال، تلك الأحجار والمجوهرات التي كانت تأخذ بريقها من القرص الأكثر قداسة عند الفينيقيين قرص الشمس ذو الحضور الأبدي والجلال السرمدي.

الرسم والتصويرعند الفينيقيين وعلاقته بالرسم والتصوير عند الاغريق

لقد اتسمت العلاقة بين الإغريق والفينيقيين (الذين ظهروا على مسرح العالم القديم في القرن الثامن قبل الميلاد) بالتداخل والتأثر والمنافسة التجارية وصولاً إلى الحروب العسكرية الطاحنة بينهما.

وكانت أولى الصدامات العسكرية في غرب المتوسط في جزيرة صقلية وذلك في بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما حاول الإغريق البحث عن موطئ قدم لهم على الخطوط التجارية البحرية الكبرى التي كان الفينيقيون يسيطرون عليها بشكل كامل.

إن التنافس الحاد في المجال الاقتصادي بأوجهه المتعددة كان وراء اندلاع المواجهات العسكرية الفينيقية في غرب المتوسط مع الإغريق والرومان فيما بعد.

في شرق المتوسط وقبل أن يظهر الإغريق على مسرح التاريخ والأحداث وبشكل واضح وجلي مستفيدين من الإرث الشرقي بشكل عام والفينيقي بشكل خاص في مجالات الفكر، والثقافة، والاقتصاد وغيرها من النشاطات والعلوم الراقية التي برع فيها الفينيقيون.

ولقد كان التراث الديني الأسطوري هو أيضاً أحد هذه المجالات فالإرث الأسطوري اليوناني يضم الكثير من الآلهة وأنصاف الآلهة الفينيقية مثل قدموس الملك وأخته أوروبا، وبركليس, وأريان, وديونسيسوس, وأدونيس وغيرهم من هؤلاء الخالدين.

ولعل القصيدة الشعرية الرائعة التي كتبها الشاعر (موسيخوس) في القرن الثاني الميلادي ونسبها إلى الإغريق. وهي تروي قصة الاختطاف الذي قام به كبير آلهة الأوليمب (زيوس) لـ "أوروبا" ابنة أجينور ملك فينيقيا وكيف أطلق اسمها على عموم القارة الواقعة شمال الجزر اليونانية.

وعندما قام أخوها قدموس الملك بالبحث عنها في طول البلاد وعرضها دون أن ينجح في ذلك خصوصاً بعد أن روت له عرافة دلفي قصة اختطاف كبير آلهة الأوليمب لأخته وأن إمكانية العثور عليها مستحيلة، قرر بعد ذلك قدموس الملك الاستقرار في بلاد الإغريق فبنى مدينة طيبة العظيمة وبنى المعابد

الضخمة لآلهته التي أصبحت آلهة الإغريق فيما بعد كما علمهم الأبجدية، ولقد خُلّدت هذه الحادثة على نقد معدني ما زال محفوظاً في المكتبة الوطنية في باريس.

ولقد كان لقب قدموس الملك في بلاد الإغريق (أبو الكتابة) أما هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) فقد قال: " إن الفينيقيين القادمين مع قدموس ابن أجينور، جلبوا إلى الإغريق معارف كثيرة ".

تزوج قدموس الملك أبو الكتابة حسناء تسمى "هارمونيا" ومن نسل قدموس الملك وهارمونيا ظهرت آلهة الجمال عند الإغريق في كريت "أريان" وغيرها من الآلهة العظام التي أقيمت المعابد في طول بلاد الإغريق وعرضها تشريفاً لها وتعظيماً لمكانتها.

بالإضافة إلى شخصية قدموس الملك أبو الكتابة، هناك شخصية فينيقية أخرى تمحورت حولها الكثير من الأساطير التي تنسب للإغريق وهي شخصية أدونيس إله الربيع والخصب عند الفينيقيين والإغريق معاً.

ولقد ارتبطت بهذا الإله الشاب الكثير من الطقوس والاحتفالات السنوية التي كانت تقام في عموم سواحل المتوسط وتسمى بأعياد الأدونيا ولقد استمرت هذه الأعياد في الساحل السوري حتى القرن الرابع الميلادي.

أشارت الكثير من النصوص الإغريقية ولاسيما الألياذة والأوذيسة إلى البراعة التي اتسم بها الفينيقيون في إبداع الأعمال الفنية الزجاجية، والمعدنية، والأقمشة لدرجة أن كأساً زجاجياً لمزج الخمر قد وضع كجائزة لإحدى السباقات الأولمبية كما يذكر هوميروس في الإلياذة ويعلق بأن هذا الكأس هو الأجمل في العالم صاغه حرفيون من صور.

بالإضافة إلى ما ذكرت سابقاً فإن محاولات الآثاريين الغربيين تجاهل القطع الفني الفاخرة والأواني الرائعة التي وجدت في خرائب ممالك المدن الفينيقية شرقاً وغرباً بالإضافة إلى وجود هذه القطع وتركيزهم على القطع خشنة الذوق والتنفيذ المصنّعة من خلال قوالب بهدف إنتاج كميات كبيرة منها لتغطية الحاجات المحلية والخارجية واعتبارهم لهذه القطع هي المعبّرة الوحيدة عن الفن الفينيقي لغاية في نفس يعقوب ثم حاولوا اعتبار القطع الفاخرة هي قطع إغريقية أو صنعت في مشاغل إغريقية بناء على طلب تجار فينيقيين وكأنهم كانوا على عقود الاتفاق بين الإغريق والفينيقيين وهم لا يخجلون من هذه الترهات غير المستندة على أي أساس علمي دقيق وحاسم.

لقد تاجر الفينيقيون مع كل شعوب العالم القديم وقاموا بإنتاج أعمال فنية تناسب ذوق الشعب المنوي الاتجار معه وهكذا أبدعوا أعمالاً فنية تناسب الذوق الآشوري وأخرى تناسب الذوق المصري وثالثة تناسب الذوق الإغريقي والروماني بالإضافة إلى إبداع أعمال خليطة بين فنون كل هذه الحضارات وهذه

هي إحدى مزايا الفن عند الفينيقيين ولولا قيام بعض الفنانين بكتابة أسماءهم على بعض منتجاتهم الآشورية الطراز والمصرية الطراز والاغريقية والرومانية الطراز لضاعت هوية المنتج الحقيقي لهذه التحف.